# The status and type of the other in the message of Ibn Fadlan: A cultural approach

Prof Dr. Ahmed Hayawi Al Saad
College of Arts
The University of Basrah

Assistant Lecturer. Mona Hassan Ali
Directorate of Education Basrah

## Abstract:

The Arab travelers and writers who lived in the fourth century AH, through their works, contributed to the embodiment of cultural and intellectual openness to the outside world, and they had a great favor for geographer's researchers and historians. They left us treasures of works that turned into a cultural and human heritage. Among those travelers are Ahmed bin Fadlan. His journey to the country of the Russians - through many countries and territories - is one of the oldest sources in ancient Russia and the first Arabic manuscript to describe non-Muslims. He described a fine description of all the conditions of the men, the status of woman, their way of life, the burial of the dead and their faith in God, as well as the description of strange customs and practices that differ from Islamic practices and values. And this is what this study sought to explain, asking God to reconcile.

# مكانة الآخر ونوعه في رسالة ابن فضلان
## مقاربة ثقافيَّة

أ.د. أحمد حياوي السعد(*)
كلية الاداب / جامعة البصرة

م.م. منى حسن علي(**)
مديرية تربية البصرة

**المستخلص:**

ساهم الرَّحالة والأدباء العرب الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري ، عبر أعمالهم ، في تجسيد الانفتاح الثقافي والمعرفي على العالم الخارجي ، وكان لهم فضل كبير على الباحثين من الجغرافيين والمؤرخين ، فقد تركوا كنوزاً من المصنَّفات تحوَّلت إلى رصيد حضاري إنساني. ومن أولئك الرحالة أحمد بن فضلان البغدادي . إذْ تعد رحلته إلى بلاد الروس ـ مروراً ببلاد وأقاليم كثيرة ـ من أقدم المصادر في روسيا القديمة وأول مخطوطة عربيَّة تصف غير المسلمين . فقد وصف ، وصفاً دقيقاً رائعاً ، كلَّ ما يتعلَّق بحال الرجل عندهم ، ومكانة المرأة بينهم ، وحال سكنهم وطرق عيشهم ، وحالهم في دفن الموتى ، وعقيدتهم في الإله ، فضلاً عن وصف العادات والسلوكيات الغريبة التي تختلف عن الممارسات والقيم الإسلامية . وهذا ما سعت هذه الدراسة إلى بيانه ، سائلين الله تعالى التوفيق ، وما توفيقنا إلاَّ بالله .

* Email:- dr.ahmedalsaad@yahoo.com

** Email :- Moaydhannon@hotmail.com

**في الرَّحالة والرِّحلة :**

هو أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمَّاد . كاتب عربي مسلم . لم يصل إلينا عن حياته ، من حيث النشأة والميلاد ، إلاَّ النزر اليسير ، منها أنَّه عاش في مطلع القرن الرابع الهجري ، ولكن لا يُعرف بالتحديد تاريخ ولادته أو وفاته .

تميَّز ابن فضلان بثقافة دينيَّة رفيعة ، وأدب رفيع ، وأسلوب جميل ، وورع وخلق ، وحب لنشر الإسلام ، وصدق في الحديث . ويظهر أنَّه كان مُقرَّباً من الخلفاء والأمراء ، موثوقاً به عندهم في علمه ومقدرته وكفاءته . ولعلَّه لذلك أرسله الخليفة المقتدر بالله العباسي برحلة شاقَّة إلى بلاد الروس ، وذلك بعد أنْ ورده طلب من ملك الصقالبة أنْ يرسل إليه مَنْ يعلِّمه أمرَ دينِهِ ، ويطلب منه مساعدة ماليَّة لبناء مسجد ، وحِصناً يتحصَّن فيه من اعتداءات وظلم ملك دولة الخزر اليهودية .

وقد استغرقت الرحلة أحد عشر شهراً في الذهاب ، وكانت مليئة بالمغامرات والمشاق والمصاعب السياسية ، والانفتاح على الآخر المختلف ثقافيّاً . ورغم مرور ما يزيد عن ألف سنة على رحلة ابن فضلان ما زال صاحبها محط إعجاب الباحثين والمهتمين على مر العصور . وذلك بعد أنْ تخطَّى ـ هو ـ حدود القوميَّة إلى أفق الإنسانيَّة الرَّحب ، فحفظ لشعوب عِدَّة ذخيرة فريدة من ماضٍ ما كان له حضور بينهم ، لولا تلك السطور الخالدة التي دوَّنها في بغداد ، بعد عودته من رحلته تلك ، محمَّلاً بكنز من حقائق عاشها فخلَّدته على امتداد الزمان .

**مكانة الآخر ونوعه :**

**أ- الآخر المغاير بالجنس ( المرأة ) :**

أدرك ابن فضلان وهو يدوِّن لنا في رحلته مشاهد متنوعة ومختلفة عن المرأة , أهمية هذا الآخر المغاير في الجنس ؛ كون المرأة تشكل جانباً مهماً من الجوانب التي تكشف عن قيم وثقافة المجتمع الذي تنتمي إليه ، وكذلك انطلاقاً من أهميتها في مجتمعِهِ ؛ كونها عنصراً

فـاعلاً فـي ثقافتـه الإسـلامية , وقد منحهـا الـدين الاسـلامي مكانـة مرموقـة , لـذا حـرص ابـن فضلان على إظهار عالمها وما يحيطه من دهشة وغموض وغرابة في البلدان التي قصدها , إذْ يمكن عدَّها البوصلة التي تشير إلى اتجاهات المجتمعات الثقافية والحضارية ، وبالتالي تقود إلى تكوين انطباعات عن ذهنية المجتمع وإصدار الأحكام بحقِّه .

وقد ارتبطت صورة المرأة في رحلة ابن فضلان بأمور لم يعهدها في ثقافته ونسقه الديني, لذلك نراه يتفاعل مع صورتها الملتقطة بالإشارة إليها دون التعليق عليها ، وأحياناً مع التعليق عليها واستنكارها ، وهذا ما نراه ـ مثلاً ـ عندما ينقل إلينا صورة عدم بكاء النساء الصقلبيات على الميت ، إذْ يقول : **( ولا تبكي النساءُ على الميت ، بل الرجال منهم يبكونَ عليه بأقبح بكاء يكون وأوحشه )**[١].

وهنا تبدو هذه الصورة غريبة عند ابن فضلان الذي تعوَّد بكاء النساء على الميت في ثقافته ، ومع ذلك لم يُبدِ رأياً أو يطرح تعليقاً على هذا الأمر يُبيِّن حدود مشاعر المرأة وطبيعتها فيما إذا كانت قويَّة وتمتلك من رباطة الجأش والصلادة ما يمنعها من البكاء إزاء موقف محزن مثل الموت , واكتفى باستنكار سلوك الرجال في الموقف ذاته ، عندما يصف بكاءَهم بالقبيح المُوحش ، الذي يعكس الغرابة في نظرة ابن فضلان للآخر.

وفي موقف آخر يُبدي ابن فضلان استغرابه ممَّا قامت به المرأة التركية من تصرف غريب وغير مألوف لديه **( فَبَيْنما هي تحدثنا إذْ كشفتْ فرجَها وحكَّتهُ ، ونحن ننظرُ إليها فَسَتَرْنا وجوهنا ، وقلنا : أَستغفرُ الله )**[٢]. فالموقف هنا يتعارض مع ثقافة ابن فضلان الدينية، وشريعته الإسلامية ، ممّا جعله يُعبِّر عن رفضه انطلاقاً من منظومة دينية ، وثقافة إسلامية لها مجموعة من القيم والمبادئ والتصورات حول المرأة . صورة تتراوح ما بين المرأة المسلمة الوقورة المحتشمة ـ وهي الصورة المُثلى التي وجَّهت ابن فضلان في نظرته للمرأة ـ وصورة المرأة الجارية الممتهنة . إن هاتين الصورتين اللَّتين يحملهما ابن فضلان لا شك كانتا بمثابة مرجع ومقياس للنظر إلى أي امرأة صادفها في مسار رحلته[٣].

ويصـور ابـن فضـلان المـرأة الروسـية بأنَّهـا مُسـتَلَبة خاضـعة للثقافـات السـائدة فـي بلـدها بحكم هيمنة قيم ومعتقدات وأفكار تلك الثقافات . فإنْ مات جليلٌ ـ عندهم ـ أحرقوه وأحرقوا معه جاريتَهُ ، بعد أنْ يتناولها الفجَّار من أصحاب الميت في أوضاعٍ يأباها الإسلام والدين والذوق(٤).

كذلك يصور ابن فضلان تعدد الجواري لدى ملك الخزر وملك الروسية في مشهد ينقله من خلف أسوار قصور الملوك الأمراء والسلاطين وأصحاب النفوذ , يُبيَّن وضعية المرأة وعبوديتها باختزالها في موضوع رغبة وإمتاع بطريقة تجردها من كينونتها وإنسانيتها في صورة لم يُبدِ ابن فضلان استغراباً أو دهشةً نحوها ربما ؛ لأنَّ الأمر ليس غريباً عن حمولته الثقافية، التي اعتاد ملوكها وخلفائها على امتلاك عدد غير قليل من الجواري فيقول : ( **ورسم ملك الخزر أنْ يكونَ له خمس وعشرون امرأة ، كل امرأة منهنَّ ابنه ملك من الملوك الذين يحاذونَهُ ، يأخذها طوعاً أو كرهاً . وله من الجواري السراري لفراشه ستون** )(٥) . وكذلك الحال مع ملك الروس ، إذْ ( **يجلس معه على السرير أربعون جارية لفراشِهِ** )(٦) .

وينقل لنا ابن فضلان حال المرأة الروسية وما تحمله من مكانة دونيَّة في وعي الآخر ، إذْ أنَّها منتهكة مباحة ، وهو ما شدَّ انتباه ابن فضلان لينقله إلينا في أكثر من موقف من خلال العلاقات الجنسية ، التي لا تنظر إلى المرأة إلاَّ باعتبارها جسداً مباحاً . وقد تجلَّى ذلك في ممارسة الروس الجنس أمام أنظار الجميع حيث ( **يجتمع في البيت الواحد العشرة والعشرون والأقل والأكثر. ولكلِّ واحدٍ سرير يجلس عليه ، ومعهم الجواري الرَّوقة للتجار ، فينكح الواحد جاريتَهُ ، ورفيقه ينظر إليه** )(٧) . ومثلهم ـ في ذلك ـ ملك الروس ، إذْ (**يجلس معه على السرير ـ** كما ذكرنا **ـ أربعون جارية لفراشِهِ ، وربَّما وطئ الواحدة منهنَّ بحضرة أصحابه** )(٨).

ولم يفت ابن فضلان أنْ يصف لنا الشكل الخارجي للمرأة دون الخوض في تفاصيل جسدها ؛ لأنَّ ثقافته الدينية تحتم عليه أنْ يغضَّ بَصرَهُ . واكتفى بالإشارة لمرة واحدة إلى لباس المرأة الروسية ، ولم يكن وصفها مقصوداً ، إذْ لم يصف الجسد وإنَّما ما يحمله هذا

الجسد من ثقافة ، فيقول : ( **وكل امرأة منهم فعلى ثديها حُقَّة مشدودة إمَّا من حديد ، وإمَّا من فضة ، وإمَّا نحاس ، وإمَّا ذهب ، على قدر مال زوجها ومقداره . وفي كلِّ حُقَّةٍ حلقةٌ فيها سكينٌ مشدودة على الثدي أيضاً . وفي أعناقهنَّ أطواقٌ من ذهب وفضة** )[٩].

لنستطيع تمثل وضعية المرأة في البلدان

وبما أنَّ الحديث عن الآخر / المرأة يرتبط بالضرورة بالرجل فلم يفت ابن فضلان أنْ ينقل صورة المرأة من خلال علائقيتها مع الآخر الزوج ، فيذكر اهتمام بعض الرجال بزوجاتهم، فيقول : ( **إنَّ الرجلَ إذا مَلَكَ عشرة آلاف درهم ، صاغ لامرأته طوقاً ، وإنْ مَلَكَ عشرينَ ألفاً صاغ لها طوقين ، وكذلك كل عشرة آلاف يزدادها يزداد طوقاً لامرأته . فربَّما كان في عنق الواحدة منهنَّ الأطواق الكثيرة . وأَجلّ الحليِّ عندهم الخرز الأخضر من الخزف الذي يكون على السفن يبالغون فيه ، ويشترون الخرزة بدرهم وينظمونه عقوداً لنسائِهِم** )[١٠].

ويرينا ابن فضلان مكانة زوجات الملك حين ينقل مشهد تقديم الهدايا لزوجة ملك الصقالبة ، فيقول : ( **ثم أخرجتُ الهدايا من الطِّيب والثياب واللؤلؤ له ، ولامرأته ، فلم أزل أعرضُ عليه وعليها شيئاً شيئاً حتى فرغنا من ذلك ، ثم خلعتُ على امرأته بحضرة الناس وكانت جالسةً إلى جنبه ، وهذه سنَّتُهم وزيُّهم ، فلما خلعتُ عليها نثرَ النساء عليها الدَّراهم وانصرفنا** )[١١]. وهنا يورد ابن فضلان عبارة وهذه ( سنَّتُهم وزيُّهم ) للإشارة إلى اختلاف ثقافة الآخر .

**ب- الآخر المُستهجَن :**

إنَّ سلوك الفرد في مجتمعه تحدده معايير دينية وخلقية , وقد أدرك ابن فضلان ذلك فكان راصداً جيداً لكل ما يقع خارج هذه المعايير من عادات مُستقبَحَة عند الآخر ، وتقع خارج نطاق المألوف في ثقافته وذخيرته المعرفية والقيميَّة , إذْ أنَّ المعيار للحكم على

سلوكيات الآخر يقع ، في إطار التزيين والتقبيح ، على أساس مفاضلة ثقافة الذات على ثقافة الآخر(١٢) .

وأكثر هذه السلوكيات تنافي العادات والتقاليد التي أَلِفها الرَّحالة في بلده ، كما أنَّ بعضها تتناقض مع الشريعة الإسلامية التي حددت أحكاماً لهذه السلوكيات التي يرقى بعضها إلى الكبائر ، ومن هنا عمد ابن فضلان إلى مقارنة عادات ومعتقدات المجتمعات التي زارها بالعادات العربية ومعتقدات الشريعة الإسلامية ، كما قارن اختلاف الثقافة والبيئة ؛ ليقدم صورة الانهيار في المنظومة القيميَّة للآخر عبر رصده جملة من الممارسات السلوكيَّة المُستهجَنة ، أو عبر العقائد والمفاهيم ، انطلاقاً من ثقافته ومركزيته الإسلامية . ويظهر ذلك عندما يصف الغزيَّة ـ وهم قبيلة من الأتراك ـ بأنَّ ( **أمر اللواط عندهم عظيم جداً** )(١٣) . أو عندما يصفهم بالقذارة خاصة في ما يتعلق بالطهارة ، فيأتي بمصطلحات مستقاة من نسقه الديني وخاصة بإحكام الطهارة كـ ( الاستنجاء وغسل الجنابة ) ؛ كونها خاصة بفروض الطهارة ؛ ليؤكد أفضلية الذات المسلمة على الآخر فيقول بأنَّهم ( **لا يَسْتَنْجون من غائط ولا بول ، ولا يغتسلون من جنابةٍ ولا غيرِ ذلك . وليس بينهم وبين الماء عمل ، خاصَّةً في الشتاء** )(١٤). وإذا أراد أحدٌ من التجار الوافدين على بلادهم أنْ يغتسل من جنابة فلا يستطيع أنْ يفعل ذلك إلاَّ ليلاً كي لا يرونه ؛ لأنَّ هذا الفعل يغضبهم ( **وذلك أنَّهم يغضبون ويقولون: هذا يُريد أنْ يسحرنا ؛ لأنَّه تفرَّسَ في الماء ، ويغرمونه مالاً** )(١٥) .

ومثلما الآخر التركي مُستهجِن لقذارتِهِ ، فكذلك الروس ، الذين وصفهم بالحمير الضَّالة ، فهم عنده ( **أقذر خلق الله لا يَسْتَنْجون من غائط ولا بول , ولا يغتسلون من جنابةٍ , ولا يغسلون أيديهم من الطعام , بل هم كالحمير الضَّالة** )(١٦). كما يستهجن ملكهم ، الذي ( **لا ينزل عن سريره ، فإذا أراد قضاء حاجةٍ قضاها في طشت** )(١٧).

وعندما يريد الروس أنْ يغسلوا وجوههم ورؤوسهم يفعلون ذلك بماء قذر ( **ولا بدَّ لهم في كلِّ يوم من غسل وجوههم ورؤوسهم بأقذر ماء يكون وأطفسه . وذلك أنَّ الجارية توافي كل يوم بالغداة , ومعها قصعة كبيرة فيها ماء , فتدفعها إلى مولاها فيغسل فيها يديه ووجهه ,**

**وشعر رأسه فيغسله ويسرحه بالمشط في القصعة ، ثم يمتخط ويبصق فيها , ولا يدع شيئاً من القذَر إلاَّ فعله في ذلك الماء . فإذا فرغ ممَّا يحتاجُ إليه حملت الجارية القصعةَ إلى الذي إلى جانبه ففعل مثل فعل صاحبه ، ولا تزال ترفعها من واحدٍ إلى واحدٍ حتى تديرها على جميع مَنْ في البيت . وكل واحد منهم يمتخط ويبصق فيها ويغسل وجهه وشعره فيها)**[١٨].

ويذكر ابن فضلان أنَّ الأتراك لا يخلعون ثيابهم لدرجة أنَّها تبلى من الوسخ ؛ لأنَّها من رسومهم . ويذكر بهذا الصدد الثياب الداخلية لملك الغزيَّة القذرة ـ وربَّما استحضر هنا ابن فضلان في مخيلته الملوك والخلفاء المسلمين واهتمامهم بنظافة الثياب التي يلبسونها وأناقتها ـ فيقول **( ونزع الديباجةَ التي كانت عليه ليلبس الخلع فرأيتُ القرطق الذي تحتها وقد تقطَّع وَسخاً ؛ لأنَّ رسومهم أنْ لا ينزعَ الواحدُ منهم الثوبَ الذي يلي جسده حتى ينتثر قطعاً )**[١٩].

والمرأة التركية غير محتشمة ، فلا تستر شيئاً من بدنها عن أحد من الناس . وكذلك لا يتستر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم[٢٠]. وينقل ابن فضلان حادثة تَنمُّ عن انعدام الغيرة عند الرجل ، فيقول : **( ولقد نزلنا يوماً على رجل منهم فجلسنا ، وامرأة الرجل معنا ، فَبَيْنا هي تحدثنا إذْ كشفت فرجها وحكَّته . ونحن ننظرُ إليها فَسَتَرْنا وجوهنا , وقلنا : أَستغفرُ الله، فضحك زوجُها )**[٢١].

كما يتعرض ابن فضلان إلى عقائد الباشغرد ـ وهم أيضاً أقوامٌ من الترك ـ التي أثارت استهجانه ويراها باطلة ، فيقول : **( ومنهم من يزعم أنَّ له اثني عشر ربّاً : للشتاءِ ربٌّ ، وللصيفِ ربٌّ ، وللمطرِ ربٌّ ، وللريحِ ربٌّ ، وللشجرِ ربٌّ , وللناسِ ربٌّ , وللدَّوابِ ربٌّ وللماءِ ربٌّ , وللَّيلِ ربٌّ , وللأرضِ ربٌّ )**[٢٢].

ويتحدث عن طوائف الباشغرد ، فيقول : **( ورأينا طائفةً منهم تعبدُ الحيّات ، وطائفةً تعبدُ السَّمك ، وطائفةً تعبدُ الكَراكيَّ )**[٢٣] . وقد غَمَّهُ أنْ يسجدوا لخشبٍ ، ينحتونه على أشكالٍ مخزية ، ويتخذونه ربّاً ، فـ **( كل واحدٍ منهم ينحت خشبةً على قدرِ الإحليل ويعلقها عليه ، فإذا أراد سفراً أو لقاءَ عدوٍّ قبَّلها ، وسجدَ لها ، وقال : يا ربِّ افعل بي كذا وكذا )**[٢٤].

وذكر ابن فضلان أنَّه سأل بعضهم عن حجتهم في ذلك ، فقال له أحدهم : ( **لأنِّي خرجتُ من مثلِهِ فلستُ أعرفُ لنفسي خالقاً غيره** )[٢٥] .

كما يستهجن ابن فضلان الترك لِأكلهم القمل ، فيقول : ( **ويأكلون القمل , يتتبع الواحد منهم درز قُرْطَقه , فيقرض القملَ بأسنانه . ولقد كان معنا منهم واحد قد أسلم وكان يخدمنا، فرأيته وجد قملةً في ثوبِهِ , فقصعها بظفره , ثم لحسها ، وقال لمَّا رآني : جيد!**)[٢٦].

ويخبرنا ، أيضاً ، عن استهجانه من شرب الروس للنبيذ فهم ( **مستهترون بالنبيذ يشربونه ليلاً ونهاراً , وربَّما مات الواحد منهم والقدح في يده** )[٢٧].

كما أنَّ الصقلبي هو الآخر مُستهجَن ؛ بسبب مغايرته لشريعته الإسلامية وأعرافها وتقاليدها التي تقتضي بعدم اختلاط الرجال مع النساء في مواضع ، وإذا اقتضى الأمر يجب أنْ تراعى فيه الحشمة ، فيقول : ( **وينزل الرجالُ والنساءُ إلى النَّهرِ فيغتسلون جميعاً عراة لا يستتر بعضُهم من بعضٍ** )[٢٨] .

أما الخزر فإنَّه يذكر طبائعهم في صفحات لا تتعدى أصابع اليد الواحدة ، فحين يموت ملكهم فإنَّهم يقتلون الذين يقومون بدفنه كي لا يُعرف مكان قبره ( **وإذا دُفِنَ ضُربتْ أعناقُ الذين يدفنونَهُ حتى لا يُدرى أين قبره** )[٢٩].

كما أنَّ مدَّة حكم الملك عند الصقالبة أربعون عاماً ثم يقتل بعدها ( **ومدَّة ملكهم أربعون سنةٍ إذا جاوزها يوماً واحداً قتلته الرَّعيَّة وخاصته , وقالوا : هذا قد نقصَ عقلُهُ واضطرب رأْيُهُ** )[٣٠] .

أمَّا قُوَّاد الملك وخليفته فهم حين يُهزمون في معركة فإنَّ عوائلهم وكل ما يملكون تُوهب لغيرهم ، وربَّما يُقتلون ببشاعة ( **فأمَّا القواد وخليفته فمتى انهزموا أحضرهم وأحضرَ نساءَهم وأولادهم فوهبهم بحضرتهم لغيرهم وهم ينظرون . وكذلك دوابهم ومتاعهم وسلاحهم ودورهم,**

**وربَّما قطعَ كلَّ واحدٍ منهم قطعتين وصلبهم , وربَّما علَّقهم بأعناقِهِم في الشجر ، وربَّما جعلهم إذا أحسنَ إليهم ساسة )**[٣١]

**ت- الآخر المستحسن المقبول :**

مثلما تحمل الصورة المقدمة عن الآخر عند ابن فضلان مشاعر الاستهجان والاستقباح تحمل ، في الوقت ذاته ، مشاعر الاستحسان وذلك عند تعرضه إلى ما وجده متوافقاً ومنسجماً مع منظومته القيميَّة وتعاليم الدين الإسلامية الذي تعد مرجعيته ، ذلك ما يمكن أنْ يُسمى السلوك المقبول أو المستحسن ، وهو الفعل الصادر عن الفرد والمتماشي مع المعايير الاجتماعية التي تحكم الفرد داخل المجتمع[٣٢].

ولابد هنا من الإشارة إلى أنَّ ابن فضلان لا ينظر إلى الآخر بعين واحدة ، بل نراه ينفتح عليه بكل التجليات , فهو لم يعتمد في تقديمه للآخر على صورة نمطيَّة تتحكم فيها مرجعيات ، وتصورات أيدلوجية مسبقة ، وإنما ينظر بموضوعية وينقل بأمانة ما شاهده سواء اتفق مع ثوابته الدينية والحضارية أم لم يتفق , واضعاً في الحسبان أنْ يُقدِّم للناس المعرفة الحقيقية للآخر واكتشافه ، مؤمناً بأنَّ هناك ذاتاً أخرى تختلفُ من حيثُ الطبائع ، والعاداتِ والتقاليد عن ذاته ، مقدماً عبر ما نقله مواقف حقيقتها الاعتراف بالحضارات الأخرى واحترامها ، عند التماس والاحتكاك معها ، إذْ أنَّ رؤية ابن فضلان هي فهم الآخر الذي لا يجب ضمَّه والاستيلاء عليه ، بقدر ما يتعين على المرء أنْ يتحوَّل ضيفاً عنده[٣٣].

فمن السلوك المقبول أو المستحسن ما يذكره ابن فضلان بأنَّ الترك يُقيمون اعتباراً للعلاقة الزوجية بدليل العقوبة التي ينزلونها على الأشخاص الذين يمارسون علاقة خارج إطار الزوجية ، فيذكر في هذا الصدد بأنَّ الغزيَّة ـ الأتراك ـ لا يرتكبون الكبائر مثل الزِّنا فهم لا يزنُون ومَنْ يرتكب منهم هذه الفاحشة ينزلون به أقصى عقوبة ، فيقول : **( وليس يعرفون الزِّنا . ومَنْ ظَهَروا منه على شيء من فعله شقُّوه بنصفين . وذلك أنَّهم يَجمعون بين أغصان شجرتين , ثم يشدُّونه بالأغصان , ويُرسلون الشَّجرتين , فينشق الذي شُدَّ إليهما)**[٣٤].

وتشير مفردة الزِّنا هنا إلى محمول ثقافي ديني عند ابن فضلان فيوردها مرة أخرى عند حديثه عمَّا استحسنه عند الصقالبة من تركهم الزِّنا ، فيقول عنهم بأنَّهم **( لا يزنُون بوجهٍ ولا سبب . ومَنْ زنا منهم كائناً مَنْ كان ضربوا له أربع سكك , وشدُّوا يديه ورجليه إليها وقطعوا بالفأس من رقبتِهِ إلى فخذيه ، وكذلك يفعلون بالمرأة أيضاً . ثم يعلق كل قطعة منه ومنها على شجرة )**[٣٥] .

إنَّ فكرة استحسان معاقبة الزَّاني تنسجم مع نسق ابن فضلان الديني ، إذْ أنَّ شريعته الإسلامية تُحرِّم الزِّنا وتنزل القصاص بمرتكبه , وإذا كان الزَّاني متزوجاً تصل العقوبة إلى الموت .

ويذكر ابن فضلان حادثةً تركت انطباعاً حسناً لديه تمثلت في احترام قبيلة الغزيَّة لعقيدة مَنْ يخالفهم في الدين ، فيقول : **( وسمعتُهُم يقولون : لا إله إلاَّ اللهُ محمدٌ رسولُ اللهِ, تَقَرُّباً بهذا القول إلى مَنْ يجتاز بهم من المسلمين لا اعتقاداً لذلك )**[٣٦] .

كما يستحسن حسن المعاشرة والضيافة عند الترك ، فيقول : **( لو اجتاز بالتركي إنسانٌ لا يعرفه ثم قال : [ أنا ضيفكُ , وأنا أُريدُ من جمالكَ ودوابِّكَ ودراهمكَ ] دفع إليه ما يُريد)**[٣٧]. كذلك يذكر في هذا الصدد أنَّه **( لا يقدر أحدٌ من المسلمين أنْ يجتاز ببلدِهِم حتى يجعلَ لهُ منهم صديقاً ينزل عليه .. فإذا قدم على صديقه ضرب له قُبَّةً وحمل إليه من الغنم على قَدْرِهِ )**[٣٨] .

وأيضاً يُستحسِن احترام الترك لعادات المسلمين في ذبح الأغنام ، فعندما يحل المسلم على أحدهم يُقدِّم له الغنم **( حتى يتولَّى المسلمُ ذبحَها ؛ لأنَّ التركَ لا يذبحون وإنَّما يضربُ الواحدُ منهم رأسَ الشَّاةِ حتى تموت )**[٣٩]. ويؤكد ابن فضلان هذه العادة ـ في موضع آخر ـ من خلال مفردتي **( ذبح وقتل )** اللَّتين تُحيلان إلى نسقين مختلفين كون الأولى خاصة بعقيدة الدين الإسلامي ، والثانية من رسوم الترك التي ترتبط بعاداتهم وتقاليدهم ، فيقول عندما نزلنا عند صاحب الجيش التركي **( ساق إلينا غنماً وقادَ دوابَّ , لنذبح الغنمَ ونركب الدَّوابَ , ودعا هو جماعة من أهلِ بيتِهِ وبني عمِّهِ فقتلَ لهم غنماً كثيرة )**[٤٠].

ويُستحسِن ابن فضلان ـ كذلك ـ تمثل الأتراك لبعض عادات المسلمين مثل استيفاء الصداق عند الزواج ( **وليس يصلُ الواحدُ إلى امرأتِهِ حتى يوفِّي الصِّداق** )[٤١]. ويشترط اتمام الزواج بعد إعطائها المهر حضور أهل الزوجة ( **فيأخذها بحضرة أبيها وأُمِّها وإخوتها فلا يمنعونه من ذلك** )[٤٢].

وتلقى فروسية الآخر التركي استحساناً لدى ابن فضلان حين رآهُ بهيئة فارس ممّا حرَّك فيه مشاعر فروسية العربي وبراعته في الصيد وذلك عندما رأى ملك الترك اصطاد وزةً فوصفه قائلاً : ( **ورأيتُ التركَ يذكرون أنَّه أفرسهم ، ولقد رأيتُ يوماً وهو يسايرنا على فرسه إذْ مرَّت وزةٌ طائرةٌ فأوتر قوسَهُ , وحرَّكَ دابتَهُ تحتها , ثم رماها فإذا هو قد أنزلها** )[٤٣].

كذلك نرى ابن فضلان يستحسن الهيئة التي بدا عليها الروس ، فهو لم يَرَ ( **أتمَّ أبداناً منهم كأنَّهم النَّخلُ , شُقرٌ حمرٌ** )[٤٤] . ثم يذكر ملابسهم وزينتهم التي أثارت إعجابه ، فيقول: (**يلبس الرجلُ منهم كساءً يشتمل به على أحد شقَّيه ، ويخرج إحدى يديه منه. ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكِّين لا يفارقه . وسيوفهم صفائح مُشطَّبة إفرنجية ومن حَدِّ ظُفْرِ الواحد منهم إلى عنقه مخضر شجرٍ وصور وغير ذلك** )[٤٥]. ولا يخفي ابن فضلان اعجابه بزينة المرأة الروسيَّة أيضاً ، فـ ( **كل امرأة منهم فعلى ثديها حُقَّة مشدودة إمَّا من حديدٍ ، وإمَّا من فضةٍ ، وإمَّا نحاسٍ ، وإمَّا ذهبٍ ، على قدر مال زوجها ومقداره .. وفي اعناقهنَّ أطواق من ذهبٍ وفضة** )[٤٦].

**ث- الآخر المثير للسخرية :**

لا تخلو رحلة ابن فضلان من مواقف سَخَرَ بها الرَّحالة من الآخر الذي صادفه في البلدان التي قصدها , والسخرية والفكاهة ليست بغريبة عن نسقه الثقافي ، فالأدب العربي يزخر بالنصوص والمدونات التي تشتمل على السخرية بهدف الإضحاك , أو التجريح والازدراء بهدف النقد أو الانتقاص . لذا فالسخرية ـ كما ينقل الآلوسي عن القرطبي ـ هي (الإستحقار والإستهانة والتنبيه على العيوب والنقائض بوجه يضحك منه , وقد تكون بالمحاكاة

بالفعل والقول أو الاشارة أو الإيماء أو الضحك على كلام المسخور منه إذا تخبَّط فيه أو غلط أو على صنعتِهِ أو قبح صورته )[٤٧]. وتحمل السخرية كذلك معنى الهزأ والتذليل[٤٨] .

ومن مواقف السخرية والازدراء التي تستوقفنا هنا وصف ابن فضلان للغة أهل خوارزم فيقول عنهم أنَّهم ( **أوحش الناس كلاماً وطبعاً , كلامهم أشبه شيء بصياح الزرازير . وبها قرية على يوم يقال لها (( أردكو )) أهلها يقال لهم (( الكردلية )) كلامهم أشبه شيءٍ بنقيق الضفادع** )[٤٩] .

فالآخر هنا عند ابن فضلان مثير للسخرية بسبب كلامه . وينطلق ابن فضلان هنا من قوة موروثه الثقافي الذي تُشكِّل فيه اللغة العماد الأساس , بوصفها لغة القرآن ، وبما تمتاز به من سحر وجمالية وحلاوة إذا كان نطقها سليماً , وهنا يُظهر ابن فضلان تفوق لغة العرب ، التي تمتاز بالفصاحة ، على لغة العجم . وقديما شبَّه العرب صوت العجم بمثل ذلك[٥٠] ، أي صفير وزقزقة وليس كلاماً مفهوماً , فهؤلاء القوم هم أوحش الناس كلاماً ، وإنَّ لغتهم لا ترقى لطبيعة لغته . كما أنَّ طباعهم ـ هي الأخرى ـ ليست كطباعه ومع ذلك فأنَّ وحشيتهم اقتصرت ـ عند ابن فضلان ـ على الكلام وطريقة النطق دون غيرهما من الصفات ربَّما لأنَّ أهل خوارزم يُدينون بدين الإسلام ، لذا لم يرد ابن فضلان الانتقاص منهم ؛ كونهم يرجعون إلى نسقه الإسلامي واكتفى فقط بالسخرية من كلامهم ؛ لأنَّ الثقافة العربية الإسلامية تُولي اللسان والبيان أهمية كبرى ، واللغة واحدة من أهم الأنساق الثقافية فيها ، حتى أنَّ الجاحظ ينقل عن ابن صفوان قوله : ( ما الإنسان لولا اللسان إلاَّ صورة ممثلة أو بهيمة مهملة )[٥١] . وبهذا تكون العُجمة منقصة داخل النسق الثقافي العربي والإسلامي .

كما طالت السخرية هيئة ملك الصقالبة الجسمانية والخلقية فهو ( **بدينٌ , عريضٌ كأنَّما يتكلَّم من خابية** )[٥٢]. هكذا وصفه ابن فضلان عندما خرج منه خائفاً ( **فانصرفت من بين يديه مذعوراً مغموماً** )[٥٣] . فالسخرية جاءت هنا ردّاً على غضب الملك عندما علم بأنَّ ابن فضلان لم يجلب معه الأموال التي يجب أنْ تُسلَّم له , فذكر ابن فضلان بدانة الملك ، بجنب كلامه الذي وصفه وكأنَّه يخرج من وعاء يغلب عليه الصدى ، فضلاً عن تضخم الصوت .

فالسخرية هنا جاءت عبر تقديم ابن فضلان صورة مضحكة عن الملك ؛ لأنه أحس بأنَّ الآخر أصبح منافساً له . ومن جهة أخرى أراد التخلص من الحرج أمام أصحابه ؛ لِمَا انتابه من خوف وذعر متناسياً بأنَّ مرجعيته الدينية تنهى عن السخرية استناداً للآية الكريمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾[٥٤]. فالخوف الذي اعترى الذات من أهم البواعث على السخرية ، ولدفعه تعتمد الذات إيقاع الآخر في الحرج والضحك ؛ لتدفع الحرج عن نفسها[٥٥]. وبالتالي يمكن عدّ السخرية هنا إنزياحاً عن النسق الثقافي لابن فضلان (الفقيه) .

ولفت نظر ابن فضلان أنَّ الرجال الترك ينتفون لحاهم ويرسلون سبالهم ، فشبَّههم بالتيوس : ( **والترك كلُّهم ينتفون لحاهم إلاَّ أسبلتهم . وربَّما رأيتَ الشَّيخَ الهرمَ منهم , وقد نتفَ لحيتَهُ وترك شيئاً منها تحت ذقنه , وعليه البوستين . فإذا رآه انسانٌ من بُعْدٍ لم يشك أنَّه تيسٌ** )[٥٦] . وهنا يسخر ابن فضلان من ثقافة الآخر ( نتف اللحى ) عبر تهكمه وقولبته عبر الإطلاق من خلال صيغة ( كلُّهم ) التي تدل على الشمولية والكلية . ولكنَّه من هذا الإطلاق يُورد الحرف ( ربَّما ) الذي يفيد الشك لا اليقين . ومن ثَمَّ يعود ليؤكد أنَّ الآخر بهذا الفعل يصبح كالخادم ( **وإذا هو قد نتف لحيتَهُ كُلَّها وسبالَهُ ، فبقي كالخادم** )[٥٧]. وفي كل هذا وذاك فإنَّ الوصف هنا لم ينعتق من نسق مضمر أساسه المعيار الديني ، إذْ أنَّ أساس التمايز بين الذات المسلمة وبين الآخر الكافر يأتي من خلال العادات التي تخالف نسق ابن فضلان الذي يحرص على إطالةِ اللِّحى وحَفِّ الشَّارب .

كما يقدم ابن فضلان صورة مضحكة وساخرة انطلاقاً من نسقه الديني ، أيضاً ، عندما يصف الترك بالحمير الضَّالة بسبب عدم اهتدائهم إلى الدين الإسلامي ، فيقول : ( **وهم كالحمير الضَّالة لا يدينون لله بدين** )[٥٨].

**ج- الآخر العدواني المتوحش :**

يرصد ابن فضلان طبيعة الآخر من خلال التركيز على جوانب من السلوكيات التي تتحكم بطبيعة علاقة الآخر مع أفراد مجتمعه أو المجتمعات القريبة منه أو الغرباء القاصدين موطنه ، إذْ يعد السلوك المحدد الأساس لكل شخصية إنسانية ، فيدوِّن المعاملة الوحشية أو

تلك العدوانية للأخر في البلدان التي قصدها التي تنافي القوانين المتحكمة في منظومته الدينية وثقافتـــه . فما يكون مقبولاً في مجتمع ما قد يكون سلوكـــاً غير مقبول في مجتمع آخر . وكانت عينه الفاحصة ترصد ذلك في رسم صورة الآخر من خلال المعاينة والاحتكاك معه وليس بناء على تصورات ذهنية مسبقة . ويتجلى ذلك عندما يقرن ابن فضلان هيئة الآخر بسلوكه ، فعندما التقى ، ومَنْ معه ، بأحد رجال ملك الترك واسمه طرخان وهو ـ كما يصفه ابن فضلان ـ أعرج وأعمى وأشل , وهو مَنْ اقترح بأنْ يُقتل ابن فضلان مع الوفد بطريقة بشعة قبل أنْ يُخلى سبيلهم . فينقل ابن فضلان قوله : ( **والوجه أنْ يُقْطَعَ هؤلاء الرُّسلُ نصفين نصفين ونأخذ ما معهم** )[٥٩].

أما الباشغرد فهم متوحشون عدوانيون ، بل هم أشد عدوانية من غيرهم يدلل على ذلك استخدامه صيغة التفضيل ( أشد ) إذْ لم تعد العدوانية مقصورة على الأفراد ، وإنّما اتسع نطاقها لتشمل الجماعات ، فيصفهم بأنَّهم ( **شر الأتراك وأقذرهم وأشدهم اقداماً على القتل يلقى الرجلُ الرجلَ فيفزّر هامتَهُ , ويأخذها , ويتركه** )[٦٠].

ويصف كذلك الوحشية المتأصلة في معتقدات الروس عندما ينقل لنا ما تفعله المرأة المسئولة عن طقوس الموت ، المدعوة بملك الموت ( **ثم جاءتْ امرأةٌ عجوز يقولونَ لها ملك الموت .. وهي تقتل الجواري ، ورأيتُها جوان بيرة ، ضخمة ، مكفهرة .. وأقبلتْ ومعها خنجر عريض النصل ، فأقبلتْ تُدخلُهُ بين أضلاعها موضعاً موضعاً وتخرجه والرجلان يخنقانها بالحبل حتى ماتت** )[٦١].

ومن السلوكيات الوحشية عند الروسية أنَّه إذا مرض أحدهم لا يعتنون به ( **فإنْ كان مملوكاً تركوه على حالِهِ تأكله الكلابُ وجوارحُ الطَّيرِ** )[٦٢].

وكانت العقوبة بحق من يرتكب السرقة عند الروس هو الموت وبطريقة وحشية وهي غير مألوفة في ثقافته فـ ( **إذا أصابوا سارقاً أو لصّاً جاءوا به إلى شجرة غليظة وشدُّوا في عنقه حبلاً وثيقاً , وعلقوه فيها ، ويبقى معلَّقاً حتى يتقطع من المكث بالرياح والأمطار** )[٦٣].

والصقلبي ، هو الآخر ، متوحش في أحكامه ، فـ ( **إذا قتل الرجلُ منهم الرجلَ .. خطأً صنعوا لـه صندوقاً من خشب الخذنك ، وجعلوه في جوفِهِ , وسمَّروه عليه ، وجعلوا معه ثلاثة أرغفة وكوز ماء ، ونصبوا لـه ثلاث خشبات مثل الشبائح وعلَّقوه بينها .. فلا يزال معلَّقاً حتى يبليه الزَّمان وتهب به الرِّياح** )[٦٤]. والصقالبة ، أيضاً ، ( **إذا رأوا إنساناً لـه حركة ومعرفة بالأشياء , قالوا : (( هذا حقُّهُ أنْ يخدمَ ربَّنا )) . فأخذوه وجعلوا في عنقِهِ حبلاً وعلَّقوه في شجرة حتى يتقطَّع** )[٦٥].

وتظهر العلاقة السلبية عند الصقلبي ـ تلك القائمة على العدوانية والكراهية والبعيدة عن قيم الأخوة والمحبة والصداقة والتعايش ـ عندما ينقل لنا ابن فضلان حادثة قتل السندي الذي نزل عند الصقالبة ضيفاً ، وكان يخدم ملكهم وكان ( **خفيفاً فهماً** )[٦٦] وكيف أنَّ الصقالبة تآمروا عليه عندما خرج معهم في التجارة فـ ( **جعلوا في عنقِهِ حبلاً وشدُّوه في رأسِ شجرةٍ عاليةٍ , وتركوهُ ومضوا** )[٦٧].

كما أنَّ القتل عند الخزر من الأعمال الوحشية التي تسم هؤلاء القوم ، فإذا مات ملكهم ودُفن ( **ضُربت أعناقُ الذين يدفنونه** )[٦٨] ، حتى لا يعرف أحدٌ مكان قبره .

وبهذا يصبح الآخر ، الترك والصقالبة والخزر ، متوحشين برابرة عدوانيين . وبهذا يُقدِّم ابن فضلان انتصاراً لتاريخه الثقافي في دلالة على أفضلية العربي المسلم ، والحط من شأن الآخر البعيد عن القيم وعن كل ما يتصل بالمعاني الإنسانية .

**الهوامش :**

١ـ رسالة ابن فضلان : ١٤٣ــ١٤٤.

٢ـ نفسه : ٩٢ .

٣ـ صور المرأة في رحلة ابن فضلان من الاندهاش إلى الإقرار بالاختلاف الثقافي ، بو شعيب الساوري , جريدة القدس ، ٣٠ مارس ، ٢٠٠٧.

٤ـ رسالة ابن فضلان : ١٥٦ــ١٥٨.

٥ـ نفسه : ١٧١ .

٦ـ نفسه : ١٦٥.

٧ـ نفسه : ١٥١ .

٨- نفسه : ١٦٥ .
٩- نفسه : ١٥٠ .
١٠- نفسه : ١٥٠ــ١٥١.
١١- نفسه : ١١٥.
١٢- أدب الرحلات , د. حسين محمد فهيم , عالم المعرفة , الكويت , ١٩٨٩م : ١٧٤.
١٣- رسالة ابن فضلان : ٩٦ .
١٤- نفسه : ٩٢.
١٥- نفسه : ٩٤. تفرس الرَّجل : إذا ثبت وتأمَّل ونظر في الأصل.
١٦- نفسه : ١٥١.
١٧- نفسه : ١٦٦.
١٨- نفسه : ١٥٢ .
١٩- نفسه : ١٠٢ــ١٠٣.
٢٠- نفسه : ٩٢.
٢١- المكان نفسه .
٢٢- نفسه : ١٠٨ــ١٠٩.
٢٣- نفسه : ١٠٩. الكراكي : طائر يقرب من الوز , أبتر الذنب , رمادي اللون.
٢٤- نفسه : ١٠٨ .
٢٥- المكان نفسه .
٢٦- المكان نفسه .
٢٧- نفسه : ١٥٦ .
٢٨- نفسه : ١٣٤ .
٢٩- نفسه : ١٧٠.
٣٠- نفسه : ١٧٢.
٣١- المكان نفسه .
٣٢- السلوك الاجتماعي وديناميته ، محاولة تفسيرية , مجدي أحمد محمد عبد الله : ٢١ .
٣٣- المتخيل والتواصل مفارقات العرب والغرب ، محمد نور الدين أفايه : ١١٢ .
٣٤- رسالة ابن فضلان :٩٣ .
٣٥- نفسه : ١٣٤.
٣٦- نفسه : ٩٢ .
٣٧- نفسه : ٩٥.
٣٨- نفسه : ٩٤ــ٩٥.
٣٩- نفسه : ٩٥ .

٤٠- نفسه : ١٠١.
٤١- نفسه : ٩٤.
٤٢- المكان نفسه .
٤٣- نفسه : ١٠٣.
٤٤- نفسه : ١٤٩ .
٤٥- المكان نفسه .
٤٦- المكان نفسه .
٤٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني , محمود شكري الالوسي البغدادي , :٢٦-١٥٢.
٤٨- تاج اللغة وصحاح العربية , أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري الصحاح : ٥٢٥.
٤٩- رسالة ابن فضلان : ٨٢ .
٥٠- ينظر هامش الدهان عن الرسالة : ٨١ .
٥١- البيان والتبيين , الجاحظ : ١٥٤.
٥٢- رسالة ابن فضلان : ١٢٠ .
٥٣- المكان نفسه .
٥٤- سورة الحجرات , الآية : ١١.
٥٥- صورة أمريكا في متخيل الرحالين العرب , عبد النبي ذاكر : ١٣ــ١٤.
٥٦- رسالة ابن فضلان : ١٠٠ــ١٠١. أسبلة وسبال : جمع سبلة , وهو الشارب .
٥٧- نفسه : ١٠٣ .
٥٨- نفسه : ٩١ .
٥٩- نفسه : ١٠٤ .
٦٠- نفسه : ١٠٧ــ١٠٨. فزّر : فَسَّخ وشقَّ وكسر. يقال فزّر أنفه بمعنى فتت .
٦١- نفسه : ١٥٨ــ١٦٢.
٦٢- نفسه : ١٥٥.
٦٣- المكان نفسه .
٦٤- نفسه : ١٣٣.
٦٥- نفسه : ١٣٢ــ١٣٣.
٦٦- نفسه : ١٣٣.
٦٧-المكان نفسه . الشبائح : العيدان .
٦٨- نفسه : ١٧٠.

**مصادر البحث ومراجعه :**


- القرآن الكريم
- أدب الرحلات , د. حسين محمد فهيم , عالم المعرفة , الكويت , ١٩٨٩م
- البيان والتبيين , الجاحظ ، تح : علي أبو ملحم , دار ومكتبة الهلال ، بيروت , ١٩٩٢م .
- تاج اللغة وصحاح العربية , أبو نصر اسماعيل بن حماد الجوهري ، راجعه واعتنى به : د. محمد محمد التامر وأنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد , دار حديث القاهر , ٢٠٠٩م .
- رسالة ابن فضلان ، أحمد بن فضلان ، تحقيق : د. سامي الدهان ، المطبعة الهاشمية ، دمشق، ١٩٦٠.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني , محمود شكري الآلوسي البغدادي ، بيروت, دار احياء التراث العربي , ١٤٠٥هـ .
- السلوك الاجتماعي وديناميته ، محاولة تفسيرية , مجدي أحمد محمد عبد الله ، دار المعرفة ، ١٩٩٨م .
- صورة أمريكا في متخيل الرحالين العرب , عبد النبي ذاكر ، منشورات الزمن , كتاب الجيب , العدد ٣١ , الرباط ، ٢٠٠١م .
- صور المرأة في رحلة ابن فضلان من الاندهاش إلى الإقرار بالاختلاف الثقافي ، بو شعيب الساوري , جريدة القدس ، ٣٠ مارس ، ٢٠٠٧.
- المتخيل والتواصل مفارقات العرب والغرب ، محمد نور الدين أفايه ، دار المنتخب العربي , ١٩٩٣م .